عدم رضى اليهود والنصارى عن النبي (ص) ومسألة تلاوة الكتاب

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ البقرة: ١١٨ - ١٢٣ .

أما تفسيرها بحسب:

- ابن كثير:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

ابن عباس قال: قال رافع بن حرملة لرسول الله (ص) : يا محمد إِنْ كنت رسولاً من الله كما تقول، فقل لله فَلْيُكَلمْنا حتى نسمع كلامه. فأنزل الله في ذلك من قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ ﴾. وقال مجاهد:

النصارى تقوله، وقتادة والسدي هذا قول كفار العرب، ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾قال: هم اليهود والنصارى، ويؤيد هذا القول، وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾الأنعام: ١٢٤، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الى قوله : ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً﴾ وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾الفرقان: ٢١ ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به، إنما هو الكفر والمعاندة، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم.

وقوله تعالى : ﴿تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أشبهت قُلُوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والعتو، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ* أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾؟ الآية، وقوله تعالى : ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى، لمن أيقن وصدق واتبع الرسل، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾يونس: ٩٦ - ٩٧ .

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

عن بن عباس قال: (بشيراً بالجنة، ونذيرًا من النار)، وقوله:﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ قراءة أكثرهم ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ﴾ بضم التاء على الخبر. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ولن تسأل﴾ عن أصحاب الجحيم أي: لا نسألك عن كفر من كفر بك، كقوله:﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾الرعد: ٤٠.

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عَمْرو بن العاص فقلت: أخبرني عن

صفة رسول الله (ص) في التوراة. فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: ((يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأميين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لا فظٍّ ولا غليظ ولاسَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلاَّ الله. فيفتح به أعينا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا)).

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

قال ابن جرير: يعني بقوله جلّ ثناؤه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبدًا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني: هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل. ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة في اتباع طرائق اليهود والنصارى، بعد ما عَلِموا من القرآن والسنة، عياذًا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمته.

وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: ﴿ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكفار، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا؛ لأنهم كلهم ملة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال قتادة: هم اليهود والنصارى، واختاره ابن جرير، وقال: سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله (ص).

قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يُحلَّ حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله.

وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، يَكِلُونَ ما أشكل عليهم إلى عالمه.

وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسعود في قوله :﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ قال: يتبعونه حق اتباعه، وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة، وعن عمر بن الخطاب: هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي (ص) أنه كان إذا مرَّ بآية رحمة سأل، وإذا مرَّ بآية عذاب تعوذ.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ خَبَر أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ المائدة: ٦٦ . وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾المائدة: ٦٨ ، أي: إذا أقمتموها حق الإقامة، وآمنتم بها حَقَّ الإيمان، وصَدَّقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد (ص) ونَعْتِه وصفته، والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته، قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾الأعراف: ١٥٧ . وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾القصص: ٥٢ - ٥٤ . وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾آل عمران: ٢٠ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ

بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ﴾هود: ١٧ . وفي الصحيح: ((والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي، إلاَّ دخل النار)) .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي

الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعتَه واسمه وأمره وأمته. يحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عَمِّهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم. ولا يحملهم ذلك الحسدُ على مخالفته وتكذيبه، والحيد عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين.

.الشيخ مغنية:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

اللغة: الملّة الديانة، ومثلها النحلة، وفي الحديث: «الكفر ملة واحدة»؟ وجاء في تفسير روح البيان: «إن الطريقة المشروعة تسمى ملة باعتبار أن الأنبياء الذين أظهروها قد أملوها لأمتهم، وتسمى ديناً باعتبار تدين العباد بها، وتسمى شريعة باعتبار كونها مورداً للمتعطشين إلى ثوابها».

الإعراب: تأتي لولا للامتناع، وتدخل على جملتين: إسمية، وأخرى فعلية، نحو لولا زيد لأكرمتك، أي لولا زيد موجود، فخبر المبتدأ يكون في الغالب مقدراً، قال ابن مالك: «وبعد لولا غالباً حذف الخبر». وأيضاً تأتي للتخصيص، أي للحض على الفعل وتختص بالدخول على المضارع أو في ما معناه ـ كما قال ابن هشام في المغني ـ مثل لولا تستغفرون، أي هلا تستغفرون.

المعنى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. إن الذين تمادوا في العتو والعناد، قالوا لرسول الله (ص): لن نؤمن لك، حتى يقول الله لنا مشافهة: إنك نبي، أو يرسل إلينا ملكاً يخبرنا بذلك، أو تأتي بما نقترحه عليك من الآيات، مثل ما حكاه الله عنهم في الآية ٩٠ وما بعدها من الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ـ إلى قوله ـ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ﴾. وقد أجاب الله عن ذلك بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾. أي إن هذا التمادي في اقتراح الأباطيل لا يختص بمن اقترحها على رسول الله (ص). فإن قوم موسى قالوا له: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾النساء: ١٥٣، وقالوا أيضاً: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ الأعراف: ١٣٨. وقالت النصارى لعيسى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾المائدة: ١١٢. وهذا هو وجه الشبه بين من اقترح على محمد (ص)، وبين من اقترح على موسى وعيسى (ع)، الشبه الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾.

والمعقول الذي تجب إجابته إذا طُلب هو أن يؤيد الله رسوله بالبينات والدلائل التي لا تدع مجالاً للشكّ في نفس من خلصت نفسه من الشوائب والكُدُورات، وتجرد للحق لوجه الحق، وقد فعل الله ذلك، وبين الدليل الكافي الوافي على نبوة محمد، أما طلب الزيادة فتعنّت ومكابرة.. وبديهة أن المعاند اللجوج لا تجب إجابته.. بل يهمل ويعرض عنه.. والقوم الموقنون هم الذين يطلبون اليقين من وجهه والطريق

الذي من شأنه أن يؤدي إليه.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ هذا تحديد لوظيفة النبي ومهمته، وأنه معلم، لا مسيطر، ومبين للحق، لا مكره عليه، فالآية تجري مجرى قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ ﴾ الكهف: ٢٩. وفي الآية تسلية للنبي (ص) لئلا يضيق صدره بكفر من كفر، وعناد من عاند.

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ قال صاحب مجمع البيان.

«سأل اليهود والنصارى محمداً (ص) أن يهادنهم، وأظهروا له أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه وآمنوا به فآيسه الله منهم ومن موافقتهم. وهذا يدل على أنه لا يصح إرضاء اليهود والنصارى بحال من الأحوال، لأنه تعالى علّق رضاهم بأن يصير يهودياً أو نصرانياً، وإذا استحال ذلك استحال إرضاؤهم».

والحقيقة أن أكثر أهل الأديان والأحزاب على هذه النزعة، ولا خصوصية لليهود والنصارى في ذلك، بل إن بعض الناس لا يرضى عنك إلا إذا جعلت من نفسك عبداً له، وقد استنكر القرآن الكريم هذه النزعة البغيضة، ودعا إلى التعايش الديني مع جميع أهل الأديان وقدس جميع الرسل والأنبياء، وذكرهم بكل خير، وأوجب على أتباعه الاعتراف بهم والإيمان بنبوتهم، وهذا من أقوى البواعث للتآخي بين أهل الملل والنحل، وتعاون بعضهم مع بعض.

وعلى أية حال، فإن الله خصّ اليهود والنصارى بالذكر، كي ييأس النبي ويقنط من متابعتهم له، كما قال صاحب المجمع.

﴿ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ قدمنا عند تفسير الآية ٢٦: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا ﴾ البقرة: ٢٦ أن الهدى يطلق على معان منها بيان الحق، ومنها التوفيق إلى الهداية وعمل الخير، ومنها الثواب إلخ.. والمراد بالهدى هنا الإسلام الذي أوحاه الله إلى نبيه محمد (ص)، وما عداه هوى، لا هدى.. والمعنى قل يا محمد لليهود والنصارى: إن ما أنا عليه هو الحق وما أنتم عليه باطل وضلالة،

فكيف أترك الحق، وأتبع الضلال؟

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

الإعراب: جملة يتلونه حال من الضمير في آتيناهم، وحق قائم مقام المفعول المطلق، أي يتلونه تلاوة حقاً، وهم في ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ ضمير فصل لا محل له من الإعراب عند النحاة مثل كان زيد هو القائم.

المعنى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ بعد أن بيّن الله لنبيه محمد (ص) أن النصارى واليهود لن يؤمنوا به، بل لن يرضوا عنه، حتى يتبع ملتهم استثنى الطيبين المنصفين منهم، وهم الذين أسلموا وآمنوا بمحمد (ص)، وعبّر عنهم بالذين يتلون الكتاب حق تلاوته، والمراد بالكتاب كل كتاب أنزله الله، سواء في ذلك القرآن، والتوراة والإنجيل ـ كما أنزلهما الله ـ لأنه سبحانه لم يعيّن كتاباً خاصاً، وعدم التخصيص والتعيين دليل العموم، ومعنى يتلونه حقّ تلاوته يتدبرون معانيه، ويعملون بأوامره ونواهيه، لا مجرد تجويد القراءة، وضبط الكلمات، وإخراج الحروف من مخارجها فإن هذه ليست بشيء إذا لم يكن معها تدبر واتعاظ، وفي الحديث الشريف: ما آمن بالقرآن من استحلّ محارمه. وجملة القول إن كلاً من التوراة والإنجيل قد بشّر بنبوة محمد (ص) كما أن القرآن قد دلّ على صدقه، وبالفعل قد أسلم كثير من اليهود والنصارى والمشركين الذين تدبروا الآيات، وتجرّدوا للحق بما هو حق.

﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ أي من كفر بما أنزل الله الذي يستلزم الكفر به الكفر بمحمد (ص) فهو من الخاسرين لا محالة، لأنه تماماً كمن كفر بالله.. وبديهة أنه لا خسران أعظم من خسران الآخرة ونعيمها الباقي ببقاء الله سبحانه.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ مضى تفسيرها في الآية ٤٠، وقد كرر الله سبحانه تذكير اليهود بنعمته في العديد من الآيات، والغرض تقريعهم وتوبيخهم بأبلغ أسلوب وأحكمه.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾. مرّ تفسيرها في الآية ٤٨.

.السيد قطب:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾

والذين لا يعلمون هم الأميون الذين كانوا مشركين، إذ لم يكن لديهم علم من كتاب وكثيراً ما تحدوا النبي (ص) أن يكلمهم الله أو أن تأتيهم خارقة من الخوارق المادية.. وذكر هذه المقولة هنا مقصود لبيان أن الذين من قبلهم طلبوا مثل هذا من أنبيائهم. فلقد طلب قوم موسى أن يروا الله جهرة وطلبوا وتعنتوا في طلب الخوارق المعجزة فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة، وشبه في التصوّر، وشبه في الضلال.

﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ ﴾ فلا فضل لليهود على المشركين، وهم متشابهو القلب وفي التصوّر والعنّت والضلال.

﴿ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ والذي يجد راحة اليقين في قلبه يجد في الآيات مصداق يقينه، ويجد فيها طمأنينة ضميره فالآيات لا تُنشئ اليقين، إنّما اليقين هو الذي يُدرك دلالتها ويطمئن إلى حقيقتها، ويهيئ القلوب للتلقي الواصل الصحيح.

وبعد هذا التفنيد لأباطيل اليهود، يتّجه الخطاب إلى رسول الله (ص) يُبيّن له وظيفته، ويحدد له تبعاته، ويكشف له عن حقيقة المعركة بينه وبين اليهود والنصارى. وطبيعة الخلاف الذي لا حل له إلاّ بثمن لا يملكُه ولا يستطيعه، ولو أدى لتعرضه لغضب الله مولاه وحاشاه.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ وَلَن تَرۡضَىٰ

عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ وهي كلمة فيها من التثبيت ما يقضي على شبهات المضللين، ومحاولات الكائدين وتلبيس الملفقين وفي حرسها صرامة توحي بالجزم واليقين.

﴿ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وظيفتك البلاغ والأداء، تُبشّر الطائعين، وتُنذر العصاة فينتهي دورك.

﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾الذين يدخلون الجحيم بمعصيتهم، وتبعتهم على أنفسهم وسيظل اليهود والنصارى يحاربونك ويكيدون لك، ولا يسالمونك ولا يرضون عنك إلاّ أن تحيد عن هذا الأمر، وإلا أن تترك هذا الحق، وإلاّ أن تتخلى عن هذا اليقين تتخلى عنه إلى ما هم فيه من ضلال وشرك وسوء تصوّر.

﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾

فتلك هي العلّة الأصيلة ليس الذي ينقصهم هو البرهان، وليس الذي ينقصهم هو الاقتناع بأنك على الحق، وأن الذي جاءك من ربك الحق، ولو قدّمت إليهم ما قدمت، ولو تودّدت إليهم ما توددت.. لن يرضهم في هذا كله شيء إلا أن تتبع ملتهم وتترك ما معك من الحق إنّها العقدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان، إنها هي العقيدة هذه حقيقة المعركة التي يشنّها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضدّ الجماعة المُسلمة.. إنها معركة العقيدة هي المشبوبة بين المعسكر الإسلامي وهذين المعسكرين اللذين قد يتخاصمان في ما بينهما، وقد تتخاصم شيع الملّة الواحدة في ما بينها، ولكنّها تلتقي دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين!

إنها معركة العقيدة وليست معركة الأرض ولا الغلّة ولا المراكز العسكرية، ولا هذه الرايات المزيفة كلها! فهم يزينونها علينا لغرض في نفوسهم دفين، ليخدعونا عن حقيقة المعركة وطبيعتها، فإذا نحن خدعنا بخديعتهم لنا فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن

نبتعد عن وحي الله لنبيّه ولأمته وهو أصدق القائلين:

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

فذلك هو الثمن الوحيد الذي يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود. ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه ليس بهدى فلا يراح منه ولا فكاك عنه ولا محاولة فيه، ولا ترضية على حسابه ولا مساومة في شيء منه قليل أو كثير ومن شاء فليؤمن ومن يشاء فليكفر. وحذار أن تميل بك الرغبة في هدايتهم وإيمانهم أو صداقتهم ومودّتهم عن هذا الصراط الدقيق.

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

بهذا التهديد المُفزع، وبهذا القطع الجازم وبهذا الوعيد الرعيب ولمن؟ لنبي الله ورسوله وحبيبه الكريم! إنها الأهواء.. إن أنا مِلت عن الهدى هدى الله الذي لا هدى سواه، وهي الأهواء التي تقفهم منك هذا الموقف وليس نقص الحجة ولا ضعف الدليل.

والذين يتجردون منهم من الهوى يتلون كتابهم حق تلاوته، ومن ثم يؤمنون بالحق الذي معك، فأما الذين يكفرون به فهم الخاسرون لا أنت ولا المؤمنون.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

وأي خسارة بعد خسارة الإيمان.

وبعد هذا التقرير الحاسم الجازم ينتقل السياق بالخطاب إلى بني إسرائيل: ليهتف بهم الهتاف الأخير بعد هذه المجابهة وهذا الجدال الطويل. وبعد استعراض تاريخهم مع ربهم ومع أنبيائهم وبعد الالتفات عنهم إلى خطاب النبي (ص) وخطاب المؤمنين.

هنا يجيء الالتفات إليهم كأنه الدعوة الأخيرة وهم على أبواب الإهمال والإغفال والتجريد النهائي من شرف الأمانة.. أمانة العقيدة التي نيطت بهم من قديم. وهنا

يكرّر لهم الدعوة ذاتها التي وجهها إليهم في أول الجولة.. يا بني إسرائيل ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

ـ السيد فضل الله:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

معاني المفردات:

﴿ بَشِيرٗا ﴾: مبشراً بالخير.

﴿ وَنَذِيرٗاۖ ﴾: منذراً ومحذّراً من العاقبة قبل حلولها.

﴿ مِلَّتَهُمۡۗ ﴾: الملّة: الديانة، ومثلها النخلة.

اختلف المفسرون في طبيعة الفئة التي عبّر عنها القرآن بالذين لا يعلمون، فقال بعضهم: إنها النصارى وقال بعضهم: إنّها اليهود، وهو قول ابن عباس، وقال بعضهم إنّهم مشركو العرب، كما عن الحسن وقتادة. ولعله الأقرب، لأنه أشبه بالمصطلح القرآني في الحديث عنهم كما جاء في الآية: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾التوبة:٦ وقد يتأكّد ذلك من خلال دراستنا للطلبات التعجيزية التي كانت تقدّم إلى النبي محمد (ص) في استحداث

آيات جديدة مقترحة من قِبل المشركين، ممّا يلتقي بهذه الطلبات المذكورة في هذه الآية، وهي أن يكلّمهم الله وجهاً لوجه أو تأتيهم آية من الآيات التي كانوا يسمعون عنها في قصص الأنبياء.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي لنسمع كلامه، فنؤمن به من خلال حاسة السمع إذا لم نتمكن من معرفته من خلال حاسة البصرة.

﴿ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌ ﴾

مُعجزة لا يقدر البشر عليها لنعرف أنّ محمداً رسول من الله، وليس بشراً عادياً كبقية بني البشر.

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ كما حدث لليهود في الكفر والتعنّت والعناد والمشاعر القلقة التي لا تنفتح على الحقائق من موقع الجدية الواعية التي تُثير علامات الاستفهام في هذا الجانب أو ذاك للوصول إلى الحقائق، بل تتحرّك من العِقدة المَرضية التي تعمل على التنفيس عن ذاتها بالأساليب التعجيزية، لأنّهم لو عقلوا المسألة بطريقة واعية، لعرفوا أن الله لا يستجيب للهوّ اللاهين، أو عبث العابثين الذين يقدمون الاقتراحات من دون حاجة إليها في المجرى الكوني العام، أو في الخط الرسالي الشامل، لأن خرق القوانين المألوفة مخالف لحكمة الله المتحرّكة في السنن الطبيعية التي أودعها الله في الكون، أو في الوسائل الضرورية لإثبات صدق الأنبياء ممّا لا مجال فيها للتصديق العام.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ وتلك هي مهمته، وتلك هي مسؤوليته، فإذا استجاب الناس له، فذلك هو ما يريده ويتمنّاه، وإذا انحرف الناس عنه فاختاروا الجحيم على النعيم باختيارهم الضلال على الهدى، فلا ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾فهذا ما لا يسأل عنه النبي، لأنّه لم يحدُث عن تقصير منه، بل عن عناد منهم واختيار للطريق السيئ في قضية المصير.

ويقول السيد (فضل الله): أعتقد أن هذه الآيات واردة في مورد وضع القاعدة الثابتة للمسؤولية التي يتحمّلها النبي من حيث هو رسول وداعية، وتحديدها

بالعناصر الاختيارية لأساليب الدعوة ووسائلها التي يملكُها، من حيث طبيعة الفكرة والكلمة والأسلوب والجو العام، أمّا الجوانب الأخرى التي تخرج عن اختياره، وترجع إلى أشياء في حياتهم النفسية أو إلى ظروف موضوعية أخرى، فهذا لا يدخل في حساب مسؤوليته، وبذلك فلا مجال لأيّ حزن أو خوف أو حسرة، لأنّ الله لم يُرسل رسوله ليغير الكون تغيّراً تكوينياً بشكل غير طبيعي، بل كل مهمّته هي السير في عملية التغيير من خلال وسائلها الطبيعية التي لا يملك كل عناصرها فلا يُكلّف إلاّ بما يملكُه في نطاق قدرته، وليس هذا مختصاً بالنبي محمد (ص) أو بالأنبياء من قبله بل يشمل كل داعية إلى الله في أي موقع من مواقع الدعوة، فليس عليه إلاّ أن يُفجّر كل طاقاته ويستخدم كل الأساليب والوسائل التي يملكها للوصول إلى قناعة الآخرين وتغيير الواقع، فإذا فعل ذلك فقد قام بمسؤوليته.. وتلك هي الطريقة الواقعية العملية التي تفرِّغ داخله من كل انفعال غير طبيعي، ممّا يجعله يواجه الفشل والهزيمة مواجهة هادئة لا تنسحق أمام نتائج الهزيمة وعناصرها بل تقف في ساحة الواقع لتجمع العناصر الجديدة المُمكنة التي يُمكن لها أن تحوّل الهزيمة إلى نصر، والفشل إلى نجاح من خلال دراسة الأسباب الواقعية لما حدَث ومحاولة التغلب عليها في حركة المستقبل.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال صاحب مجمع البيان في أسباب نزول هذه الآية: إن النبي كان مُجتهداً في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الإسلام فقيل له: دع ما يرضيهم إلى ما أمرك الله به من مجاهدتهم. وقالوا ـ في مجال آخر ـ كان اليهود يسألون النبي (ص) الهدنة ويرونه أنّه إن هادنهم وأمهلهم اتبعوه، فآيسه تعالى من موافقتهم.

إنّنا نعتقد أن ما يذكُره المفسّر هو نوع من أنواع الاجتهاد في استيحاء القصة التي يفرضون وجودها في كل آية من الآيات التي يخاطب الله فيها نبيه في كل قضية من القضايا المتعلقة بموقف النبي من العلاقات المتصلة بالآخرين.. بل الظاهر هو

أن الله كان يُريد أن يقدّم للمسلمين من خلال النبي (ص) الوعي العميق للواقع الذي يحيط بهم، سواءٌ في ذلك الواقع المتمثّل بالأشخاص الذين يخالفونهم في الدين، أو المتمثّل بالأحداث والأوضاع المحيطة بهم، ليكونوا على معرفة عميقة شاملة لما حولهم، ممّا يجنبهم خطر الوقوع في تجربة المعرفة التي تعرضهم للهلاك، وتدفعهم إلى السير في وضوح الرؤية بعيداً عن الانفعالات السريعة والأوهام الطائرة.

كما ويُعتبر هذا الأسلوب من الأساليب البارزة في القرآن في القضية التي تتخّذ جانب الخطورة على أساس العقيدة وصدقها وسلامتها من الانحراف، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر: ٦٥ وقوله سبحانه تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

أمّا هذه الآية، فقد عالجت قضية من أخطر القضايا التي قد تواجه العاملين في سبيل الله في علاقاتهم بالكافرين والمنافقين والفاسقين، فقد يستسلم العاملون لحالة نفسية ظاهرة يعيشون فيها الأمل الكبير بهداية هؤلاء المعادين للإسلام من خلال الأساليب التي يتبعونها إزاء المسلمين في ما يقدّمونه من تبريرات، وفي ما يُثيرونه من انفعالات وعواطف، وفي ما يوحون به من أفكار حميمة توحي بقُربهم من الحقّ، وذلك من خلال بعض المواقف التي يتقدّمون بها في بعض مراحل الطريق، ممّا يخلق انطباعاً بأنهم يتقدمون إلى الحق، وقد تخلقُ هذه الحالة حالة أخرى؛ وهي الرغبة في إرضاء هؤلاء ببعض الكلمات والمواقف طمعاً في الحصول على صداقتهم أو رضاهم، ممّا يستدعي من المسلمين تقديم تنازلات فكرية أو عملية في حالات معينة.

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

يختلِف المفسرون هنا، كما اختلفوا في آيات مشابهة في من هم المقصودون بهذه الآية، فقال بعضهم أنهم الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، وقيل:

هم من آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وغيره.. وقيل: هم أصحاب محمد (ص) على أن يكون المراد بالكتاب القرآن، بينما يكون المراد منه في القولين الأولين التوراة كما جاء في مجمع البيان.

ولكنّنا ترى أنّ كل هذه الآراء المذكورة اجتهادية تنطلق من الاستنتاجات والملاحظات الذاتية لأصحابها، وليست نقلية كما نلاحظ من الآراء، ولعل الأغلب في الظن أنّها ليست في مورد التركيز على جماعة معينة، بل هي في مجال التنبيه على قاعدة أساسية عامة في باب الإيمان والكفر؛ وهي تلاوة الكتاب حق تلاوته التي يريد بها القراءة عن تدبّر وتفكير وروحية واعية تتحرّك من موقع البحث عن الحق لا من موقع التعصب الأعمى، فإنّ ذلك هو سبيل الانفتاح على آيات الله وما تشتمل عليه دلائل الحق وبراهينه، حيث يقود ذلك إلى الإيمان.

ومن خلال ذلك، نفهم أن الكُفر لا ينشأ من حالة فكرية مُضادة، بل من حالة اللامبالاة والغفلة الناشئة من عدم التوفّر على القراءة الواعية والفكر المسؤول ممّا يجعل من الإنسان إنساناً يتحرك في جو التعنّت والتعصّب والعناد الذي لا يملك معه الانفتاح على الحق من قريب أو بعيد، وقد اكتفى القرآن بالحديث عن خسارة الكافرين ولم يتحدّث عن السبب في كفرهم. لأن ذلك كان واضحاً في الحديث عن سبب الإيمان، وذلك كمحاولة للإيحاء لهم بضرورة التوفر على السير في خط القراءة الواعية للحصول على فُرص النجاح في الدنيا والآخرة.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾وانطلقوا من خلاله إلى آفاق المعرفة وتحرّكت علامات الاستفهام في وجدانهم، ليلاحقوا كل مفردات القضايا الفكرية والعملية، ليحصلوا على الأجوبة الشافية من خلال القراءة الواعية.

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾في فهم عميق للمضمون الفكري، وفي استيحاء للمشاعر الروحية وفي دراسة لكل جوانبها المُتصلة بالله وبالحياة والإنسان، ليحصلوا من ذلك على الثقافة الإيمانية في أجواء الإيمان المنفتح الباحث عن الحقيقة، لا الإيمان الأعمى الغارق في ضباب التقليد فلا يقتصرون على الأداء اللفظي الذي يشغل البعض من

الناس أو على العنصر الأدبي البلاغي، بل يتحرّكون معه ككتاب عمل ووعي وحركة ومنهج للحياة، كما جاء في الإرشاد للديلمي «يرتلون آياته، ويتفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأمره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه، وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظ حروفه، وأضاعوا حدوده وإنّما هو تدبّر آياته، والعمل بأركانه، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ص: ٢٩.

وربما كان المراد بالكتاب التوراة، وربما كان المراد به ما يشمل القرآن وعلى كل حال، فإن الفكرة تنطلق من وظيفة الكتاب في الوعي الإيماني الذي يخرج به الناس من الظُلمات إلى النور، فلا فرق بين كِتاب وكتاب، فإن كلّ كِتاب يصدق الكتاب الذي بين يديه، والرسول الذي أنزل به.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ لأن القراءة الواعية للكتاب الذي يتضمّن إشراقة المفاهيم الروحية والفكرية والعملية، لا بد أن تعود إلى الإيمان اللذين يتطلعون إلى حقائقه وآفاقه ليلتزموها عقيدة وسلوكاً وانتماءً.

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ من الناس الذين لا يعيشون مسؤولية المعرفة، ولا جدية الحوار، ولا وعي القراءة بل يعيشون الحياة على أساس الغفلة واللامبالاة واللاانتماء، ويسيرون مع كل ريح، فلا يتدبّرون الكتاب، ولا يتفهمون آياته.

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾الذين خسِروا الدينا التي يخطط الكتاب لها في خط التوازن الفكري والعملي، وخسروا الآخرة التي يريد الكتاب للإنسان أن يجعلها الهدف في حركته في الدنيا، لينال الدنيا والآخرة معاً.

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

السؤال الذي يُطرح هنا، ما هو سبب إعادة تكرارها هاتان الآيتان، والظاهر أن الحديث الذي بدأه القرآن مع بني إسرائيل كان محاولة لتذكيرهم بالميثاق وبنعم الله عليهم وبمسؤوليتهم عن هذه النعم بالسير مع الإسلام في دعوة النبي (ص) وكانت

الآيات المُتتابعة بمثابة استعراض للنعم وانحرافهم عن الخط المستقيم للمسؤولية، من أجل تعميق الشعور بالمسؤولية في داخلهم في استحضار التاريخ الطويل المُفعم بالحركة، ومن الطبيعي أن ختام هذا الفصل بالتركيز على هذا الجانب الذي يُعتبر عنصراً فعالاً في تحقيق ذلك. والله العالم بحقائق آياته.

ـ الطبري:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ فقال بعضهم: عنى بذلك النصارى.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله (ص).

وقال آخرون: بل عنى بذلك مشركي العرب.

وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قول القائل: إن الله تعالى عنى بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، النصارى دون غيرهم. لأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، وعن افترائهم عليه وادعائهم له ولداً. فقال جل ثناؤه، مخبرا عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم أنهم مع افترائهم على الله الكذب بقوله: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾، تمنوا على الله الأباطيل، فقالوا جهلاً منهم بالله وبمنزلتهم عنده وهم بالله مشركون: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾، كما يكلم رسوله وأنبياءه، أو تأتينا آية كما أتتهم؟ ولا ينبغي لله أن يكلم إلا أولياءه، ولا يؤتي آية معجزة على دعوى مدع إلا لمن كان محقاً في دعواه وداعياً إلى الله وتوحيده، فأما من كان كاذباً في دعواه وداعياً إلى الفرية عليه وادعاء البنين والبنات له، فغير جائز أن يكلمه الله جل ثناؤه، أو يؤتيه آية معجزة تكون مؤيدة كذبه وفريته عليه. وأمّا الزاعم: أن الله عنى بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ العرب، فإنه قائل قولاً لا خبر بصحته، ولا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب. والقول إذا صار إلى ذلك كان واضحاً خطؤه، لأنه ادعى ما لا برهان على

صحته، وادعاء مثل ذلك لن يتعذر على أحد.

وأما معنى قوله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، فإنه بمعنى: هلا يكلمنا الله!

فأمّا الآية فقد ثبت فيما قبل معنى الآية أنها العلامة. وإنما أخبر الله عنهم أنهم قالوا: هلا تأتينا آية على ما نريد ونسأل، كما أتت الأنبياء والرسل! فقال عز وجل: ﴿ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾.

قد دلّلنا على أن الذين عنى الله تعالى ذكره بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، هم النصارى، والذين قالوا مثل قولهم هم اليهود سألت موسى (ع) أن يُريهم ربّهم جهرةً، وأن يسمعهم كلام ربهم، كما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكماً منهم على ربهم، وكذلك تمنت النصارى على ربها تحكماً منها عليه أن يسمعهم كلامه ويريهم ما أرادوا من الآيات. فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القول في ذلك، مثل الذي قالته اليهود وتمنت على ربها مثل أمانيها، وأن قولهم الذي قالوه من ذلك إنما يشابه قول اليهود من أجل تشابه قلوبهم في الضلالة والكفر بالله. فهم وإن اختلفت مذاهبهم في كذبهم على الله وافترائهم عليه، فقلوبهم متشابهة في الكفر بربهم والفرية عليه، وتحكمهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام. وبنحو ما قلنا في ذلك قال مجاهد.

وقال غيرهم: معنى ذلك تشابهت قلوب كفار العرب واليهود والنصارى وغيرهم.

﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ، قد بينا العلامات التي من أجلها غضب الله على اليهود، وجعل منهم القردة والخنازير، وأعد لهم العذاب المهين في معادهم، والتي من أجلها أخزى الله النصارى في الدنيا، وأعد لهم الخزي والعذاب الأليم في الآخرة، والتي من أجلها جعل سكان الجنان الذين أسلموا وجوههم لله وهم محسنون في هذه السورة وغيرها. فأعلموا الأسباب التي من أجلها استحق كل فريق منهم من الله ما فعل به من ذلك، وخص الله بذلك القوم الذين يوقنون، لأنهم أهل التثبت في الأمور، والطالبون معرفة حقائق الأشياء على يقين وصحة. فأخبر الله جل ثناؤه أنه

بين لمن كانت هذه الصفة صفته ما بين من ذلك ليزول شكه، ويعلم حقيقة الأمر، إذْ كان ذلك خبراً من الله جل ثناؤه، وخبر الله الخبر الذي لا يعذر سامعه بالشك فيه. وقد يحتمل غيره من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهو والغلط والكذب، وذلك منفي عن خبر الله عز وجل.

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

ومعنى قوله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا ﴾، إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذي لا أقبل من أحد غيره من الأديان، وهو الحق؛ مبشراً من اتبعك فأطاعك، وقبل منك ما دعوته إليه من الحق بالنصر في الدنيا، والظفر بالثواب في الآخرة، والنعيم المقيم فيها، ومنذرا من عصاك فخالفك، ورد عليك ما دعوته إليه من الحق بالخزي في الدنيا، والذل فيها، والعذاب المهين في الآخرة.

﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ قرأت عامة القراء: ﴿ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴾، بضم «التاء» من «تسئل»، ورف «اللام» منها على الخبر، بمعنى: يا محمد إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً، فبلغت ما أرسلت به، وإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مسئولا عمن كفر بما أتيته به من الحق، وكان من أهل الجحيم.

وقرأ ذلك بعض أهل المدينة: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ ﴾ جزماً. بمعنى النهي، مفتوح «التاء» من «تسأل»، وجزم «اللام» منها. ومعنى ذلك على قراءة هؤلاء: إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا لتبلغ ما أرسلت به، لا لتسأل عن أصحاب الجحيم، فلا تسأل عن حالهم. وتأول الذين قرءوا هذه القراءة ما:

والصواب عندي من القراءة في ذلك قراءة من قرأ بالرفع، على الخبر. لأن الله جل ثناؤه قص قصص أقوام من اليهود والنصارى، وذكر ضلالتهم، وكفرهم بالله، وجراءتهم على أنبيائه، ثم قال لنبيه (ص): إنا أرسلناك يا محمد بالحق بشيراً، من آمن بك واتبعك ممن قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءه، ونذيراً من كفر بك وخالفك، فبلغ رسالتي، فليس عليك من أعمال من كفر بك بعد إبلاغك إياه

رسالتي تبعة، ولا أنت مسؤول عما فعل بعد ذلك. ولم يجر لمسألة رسول الله (ص) ربه عن أصحاب الجحيم ذكر، فيكون لقوله: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وجه يوجه إليه.

وإنما الكلام موجه معناه إلى ما دل عليه ظاهره المفهوم، حتى تأتي دلالة بينة تقوم بها الحجة، على أن المراد به غير ما دل عليه ظاهره، فيكون حينئذ مسلما للحجة الثابتة بذلك. ولا خبر تقوم به الحجة على أن النبي (ص) نهي عن أن يسأل في هذه الآية عن أصحاب الجحيم، ولا دلالة تدل على أن ذلك كذلك في ظاهر التنزيل.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾، وليست اليهود، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، فإن الذي تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيم. ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتباع ملتهم، لأن اليهودية ضد النصرانية، والنصرانية ضد اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية في شخص واحد في حال واحدة، واليهود والنصارى لا تجتمع على الرضا بك، إلاّ أن تكون يهودياً نصرانياً، وذلك مما لا يكون منك أبدا، لأنك شخص واحد، ولن يجتمع فيك دينان متضادان في حال واحدة. وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك في وقت واحد سبيل، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل. وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل، فالزم هدى الله الذي لجمع الخلق إلى الألفة عليه سبيل. وأما»الملّة» فإنها الدين، وجمعها الملل.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

اختلف أهل التأويل في الذين عناهم الله جل ثناؤه بقوله:﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فقال بعضهم: هم المؤمنون برسول الله (ص)، وبما جاء به من أصحابه.

وقال آخرون: بل عنى الله بذلك علماء بني إسرائيل الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسلَه، فأقرّوا بحكم التوراة، فعملوا بما أمر الله فيها من اتّباع محمد (ص)، والإيمان به، والتصديق بما جاء به من عند الله.

وهذا القول أولى بالصواب من القول الذي قاله قتادة. لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين، وتبديل من بدل منهم كتاب الله، وتأوّلهم إياه على غير تأويله، وادعائهم على الله الأباطيل. ولم يجر لأصحاب محمد (ص) في الآية التي قبلها ذكر، فيكون قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾، موجها إلى الخبر عنهم، ولا لهم بعدها ذكر في الآية التي تتلوها، فيكون موجهاً ذلك إلى أنه خبر مبتدأ عن قصص أصحاب رسول الله (ص)، بعد انقضاء قصص غيرهم، ولا جاء بأن ذلك خبر عنهم أثر يجب التسليم له. فإذ كان ذلك كذلك، فالذي هو أولى بمعنى الآية أن يكون موجهاً إلى أنه خبر عمن قص الله جل ثناؤه في الآية قبلها والآية بعدها، وهم أهل الكتابين: التوراة والإنجيل. وإذْ كان ذلك كذلك، فتأويل الآية: الذين آتيناهم الكتاب الذي قد عرفته يا محمد وهو التوراة فقرأوه واتبعوا ما فيه، فصدقوك وآمنوا بك، وبما جئت به من عندي، أولئك يتلونه حق تلاوته. وإنما أدخلت الألف واللام في «الكتاب» لأنه معرفة، وقد كان النبي (ص) وأصحابه عرفوا أي الكتب عنى به.

***

﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل قوله عز وجل: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، فقال بعضهم: معنى ذلك يتبعونه حق اتباعه.

وقال آخرون: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، يقرءونه حق قراءته.

والصواب من القول في تأويل ذلك أنه بمعنى: يتبعونه حق اتباعه، من قول القائل: ما زلت أتلو أثره، إذا اتبع أثره، لإجماع الحجة من أهل التأويل على أن ذلك

تأويله. وإذ كان ذلك تأويله، فمعنى الكلام: الذين آتيناهم الكتاب، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندي، يتبعون كتابي الذي أنزلته على رسولي موسى (صلوات الله عليه)، فيؤمنون به ويقرون بما فيه من نعتك وصفتك، وأنك رسولي، فرضٌ عليهم طاعتي في الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندي، ويعملون بما أحللت لهم، ويجتنبون ما حرمت عليهم فيه، ولا يحرفونه عن مواضعه ولا يبدلونه ولا يغيرونه كما أنزلته عليهم بتأويل ولا غيره.

أما قوله: ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، فمبالغة في صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به، كما يقال: «إن فلاناً لعالم حق عالم»، وكما يقال: «إن فلاناً لفاضل كل فاضل».

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾، هؤلاء الذين أخبر عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته، وأما قوله: ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾، فإنه يعني: يصدقون به. و«الهاء» التي في قوله: «به» عائدة على «الهاء» التي في «تلاوته»، وهما جميعاً من ذكر الكتاب الذي قاله الله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾. فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن بالتوراة، هو المتبع ما فيها من حلالها وحرامها، والعامل بما فيها من فرائض الله التي فرضها فيها على أهلها، وأن أهلها الذين هم أهلها من كان ذلك صفته، دون من كان محرفاً لها مبدلاً تأويلها، مغيراً سننها تاركاً ما فرض الله فيها عليه.

وإنما وصف جل ثناؤه من وُصف بما وصف به من متبعي التوراة، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم، لأن في اتباعها اتباع محمد نبي الله (ص) وتصديقه، لأن التوراة تأمر أهلها بذلك، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوته، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بني آدم، وأن في التكذيب بمحمد التكذيب لها. فأخبر جل ثناؤه أن متبعي التوراة هم المؤمنون بمحمد (ص)، وهم العاملون بما فيها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾، ومن يكفر بالكتاب الذي أخبر أنه يتلوه من آتاه من المؤمنين حق تلاوته. ويعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ يَكْفُرْ ﴾، يجحد ما

فيه من فرائض الله ونبوة محمد (ص)، وتصديقه، ويبدّله فيحرف تأويله، أولئك هم الذين خسروا علمهم وعملهم، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله، واستبدلوا بها سخط الله وغضبه.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾

وهذه الآية عظة من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (ص)، وتذكير منه لهم ما سلف من أياديه إليهم في صنعه بأوائلهم، استعطافاً منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد (ص)، فقال: يا بني إسرائيل اذكروا أيادي لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المن والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد، بعد أن كنتم مذللين مقهورين، واختصاصي الرسل منكم، وتفضيلي إياكم على عالم من كنتم بين ظهرانيه، أيام أنتم في طاعتي باتباع رسولي إليكم، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندي، ودعوا التمادي في الضلال والغي.

وقد ذكرنا فيما مضى النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، والمعاني التي ذكرهم جل ثناؤه من آلائه عندهم، والعالم الذي فضلوا عليه فيما مضى قبل، بالروايات والشواهد، فكرهنا تطويل الكتاب بإعادته، إذْ كان المعنى في ذلك في هذا الموضع وهنالك واحداً.

وهذه الآية تتضمّن ترهيب من الله جل ثناؤه للذين سلفت عظته إياهم بما وعظهم به في الآية قبلها. يقول الله لهم: «واتقوا يا معشر بني إسرائيل المبدلين كتابي وتنزيلي، المحرفين تأويله عن وجهه، المكذبين برسولي محمد (ص) عذاب يوم لا تقضي فيه نفس عن نفس شيئاً، ولا تغني عنها غناء، أن تهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بي، وتكذيبكم رسولي، فتموتوا عليه، فإنه يوم لا يقبل من نفس فيما لزمها فدية، ولا يشفع فيما وجب عليها من حق لها شافع، ولا هي ينصرها ناصر من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إياه.

وقد مضى البيان عن كل معاني هذه الآية في نظيرتها قبل، فأغنى ذلك عن إعادته

في هذا الموضع.

ـ الطبرسي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المعنى: لما بين سبحانه حالهم في إنكارهم التوحيد وادعائهم عليه اتخاذ الأولاد عقبه بذكر خلافهم في النبوات وسلوكهم في ذلك طريق التعنت والعناد فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ وهم النصارى، عن مجاهد، واليهود عن ابن عباس، ومشركو العرب عن الحسن، وقتادة وهو الأقرب، لأنهم الذين سألوا المحالات ولم يقتصروا على ما ظهر واتضح من المعجزات وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً الآيات إلى آخرها ولأنه وصفهم بأنهم لا يعلمون فبين أنهم ليسوا من أهل الكتاب، ومن قال المراد به النصارى قال لأنه قال قبلها وقالوا اتخذ الله ولداً وهم الذين قالوا المسيح ابن الله وهذا لا دلالة فيه، لأنه يجوز أن يذكر قوما ثم يستأنف فيخبر عن قوم آخرين على أن مشركي العرب قد أضافوا أيضاً إلى الله سبحانه البنات فدخلوا في جملة من قال اتخذ الله ولداً وقوله: ﴿ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: هلا يكلمنا معاينة فيخبرنا بأنك نبي. وقيل: معناه هلا يكلمنا بكلامه كما كلم موسى وغيره من الأنبياء وقوله: ﴿ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ ﴾ أي: تأتينا آية موافقة لدعوتنا كما جاءت الأنبياء آيات موافقة لدعوتهم ولم يرد أنه لم تأتهم آية لأنه قد جاءتهم الآيات والمعجزات وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ ﴾ قيل: هم اليهود حيث اقترحوا الآيات على موسى عن مجاهد لأنه حمل قوله الذين لا يعلمون على النصارى، وقيل هم اليهود والنصارى جميعاً عن قتادة والسدي، وقيل: سائر الكفار الذين كانوا قبل الإسلام عن أبي مسلم ﴿ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ أي: أشبه بعضها بعضاً في الكفر والقسوة والاعتراض على الأنبياء من غير حجة والتعنت والعناد كقول اليهود لموسى أرنا الله جهرة، وقول النصارى للمسيح أنزل علينا مائدة

من السماء، وقول العرب لنبينا (ص) حول لنا الصفا ذهباً، ولذلك قال الله سبحانه أ تواصوا به، وقوله: ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ ﴾ يعني: الحجج والمعجزات التي يعلم بها صحة نبوة محمد (ص) ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أي: يستدلون بها من الوجه الذي يجب الاستدلال به فأيقنوا لذلك، فكذلك فاستدلوا أنتم حتى توقنوا كما أيقن أولئك، والمعنى فيه أن فيما ظهر من الآيات الباهرات الدالة على صدقه كفاية لمن ترك التعنت والعناد، فإنْ قيل لم يؤتوا الآيات التي اقترحوها لتكون الحجة عليهم آكد. قلنا: الاعتبار في ذلك بالمصالح، ولو علم الله سبحانه أن في إظهار ما اقترحوه من الآيات مصلحة لأظهرها فلما لم يظهرها علمنا أنه لم يكن في إظهارها مصلحة.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

المعنى :بين الله سبحانه في هذه الآية تأييده نبيه محمد (ص) بالحجج وبعثه الحق فقال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ ﴾ يا محمد ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ قيل: بالقرآن عن ابن عباس، وقيل: بالإسلام عن الأصم ، وقيل: على الحق أي: بعثناك على الحق كقوله سبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾الأنعام: ٧٣ أي: على أنهما حق لا باطل، وقوله:﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي: لا تسأل عن أحوالهم، وفيه تسلية للنبي (ص) إذ قيل: له إنما أنت بشير ونذير ولست تسأل عن أهل الجحيم وليس عليك إجبارهم على القبول منك، ومثله قوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ فاطر: ٨ وقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾البقرة: ٢٧٢، وقيل: معناه لا تؤاخذ بذنبهم كقوله سبحانه: ﴿ عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ ﴾النور: ٥٤ أي: فعليه الإبلاغ وعليكم القبول .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

المعنى : كانت اليهود والنصارى يسألون النبي (ص) الهدنة ويرونه أنه إنْ

هادنهم وأمهلهم اتبعوه ف آيسه الله تعالى من موافقتهم فقال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾، وقيل: أيضاً أن النبي (ص) كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم ليدخلوا في الإسلام فقيل له دع ما يرضيهم إلى ما أمرك الله به من مجاهدتهم، وهذا يدل على أنه لا يصح إرضاء اليهود والنصارى على حال لأنه تعالى علق رضاءهم بأن يصير (ع) يهودياً أو نصرانياً وإذا استحال ذلك استحال إرضاؤهم يعني أنه لا يرضي كل فرقة منهم إلاَّ أن يتبع ملتهم أي: دينهم، وقيل قبلتهم: ﴿ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي: قل يا محمد لهم أن دين الله الذي يرضاه هو الهدى أي: الدين الذي أنت عليه عن ابن عباس، وقيل: معناه أن هدى الله يعني القرآن هو الذي يهدي إلى الجنة لا طريقة اليهود والنصارى، وقيل: معناه أن دلالة الله هي الدلالة، وهدى الله هو الحق كما يقال طريقة فلان هي الطريقة، وقوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي: مراداتهم وقال ابن عباس: معناه أن صليت إلى قبلتهم ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من البيان من الله تعالى، وقيل: من الدين ﴿ مَا لَكَ ﴾ يا محمد ﴿ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ ﴾ يحفظك من عقابه ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي: معين وظهير يعينك عليه ويدفع بنصره عقابه عنك، وهذه الآية تدل على أن من علم الله تعالى منه أنه لا يعصي يصح وعيده، لأنه علم أن نبيه (ص) لا يتبع أهواءهم فجرى مجرى قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾الزمر: ٦٥ ، والمقصود منه التنبيه على أن حال أمته فيه أغلظ من حاله، لأن منزلتهم دون منزلته، وقيل: الخطاب للنبي (ص) والمراد أمته .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المعنى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ﴾ أي: أعطيناهم ﴿ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ اختلف في معناه على وجوه: أحدها: أنه يتبعونه يعني التوراة حق اتباعه ولا يحرفونه ثم يعلمون بحلاله ويقفون عند حرامه ومنه قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾الشمس: ٢ أي: تبعها، وبه قال ابن مسعود ومجاهد وقتادة إلاَّ أن المراد به القرآن عندهم. وثانيها: أن

المراد به يصفونه حق صفته في كتبهم لمن يسألهم من الناس عن الكلبي وعلى هذا تكون الهاء راجعة إلى محمد (ص). وثالثها: ما روي عن أبي عبد الله أن ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ هو الوقوف عند ذكر الجنة والنار يسأل في الأولى ويستعيذ من الأخرى . ورابعها: أن المراد يقرأونه حق قراءته يرتلون ألفاظه ويفهمون معانيه. وخامسها: أن المراد يعملون حق العمل به فيعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه عن الحسن، وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ أي: بالكتاب عن أكثر المفسرين، وقيل: بالنبي (ص) عن الكلبي ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ ﴾ وهم اليهود، وقيل: هم جميع الكفار وهو الأولى لعمومه ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ خسروا أنفسهم وأعمالهم، وقيل: خسروا في الدنيا الظفر والنصرة في الآخرة ما أعد الله للمؤمنين من نعيم الجنة .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المعنى: هذه الآية قد تقدم ذكر مثلها في رأس نيف وأربعين آية ومضى تفسيرها، وقيل: في سبب تكريرها ثلاثة أقوال: أحدها: أن نعم الله سبحانه لما كانت أصول كل نعمة كرر التذكير بها مبالغة في استدعائهم إلى ما يلزمهم من شكرها ليقبلوا إلى طاعة ربهم المظاهر نعمه عليهم . وثانيها: أنه سبحانه لما ذكر التوراة وفيها الدلالة على شأن عيسى ومحمد (ص) في النبوة والبشارة بهما ذكرهم نعمته عليهم بذلك، وما فضلهم به كما عدد النعم في سورة الرحمن وكرر قوله: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن: ١٣ فكل تقريع جاء بعد تقريع فإنما هو موصول بتذكير نعمة غير الأولى وثالثة غير الثانية إلى آخر السورة، وكذلك الوعيد في سورة المرسلات بقوله: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ المطففين: ١٠ إنما هو بعد الدلالة على أعمال تعظم التكذيب بما تدعو إليه الأدلة .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ

يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

ومثل هذه الآية أيضا قد تقدم ذكره ومرّ تفسيره .

ـ القرطبي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قال ابن عباس: هم اليهود. مجاهد: النصارى، ورجّحه الطبري؛ لأنهم المذكورون في الآية أولاً. وقال الربيع والسدي وقتادة: مشركو العرب. و(لولا) بمعنى ـ هلاّ ـ تخصيص.

وليست هذه ـ لولا ـ التي تعطى منع الشيء لوجود غيره؛ والفرق بينهما عند علماء اللسان أن (لولا) بمعنى التخصيص لا يليها إلا الفعل مظهراً أو مقدّراً، والتي للامتناع يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر. ومعنى الكلام هلاّ يكلمنا الله بنبوة محمد (ص) فنعلم أنه نبي فنؤمن به، أو يأتينا بآية تكون علامة على نبوته. والآية: الدلالة والعلامة؛ وقد تقدم. و﴿ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ كفار العرب، أو الأمم السالفة في قول من جعل ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ اليهود والنصارى، أو اليهود فيقول من جعل: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ النصارى: ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾قيل: في التعنيت والاقتراح وترك الإيمان. وقال الفراء: ﴿ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ في اتفاقهم على الكفر. ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ تقدم.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا ﴾ نصب على الحال، ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ عطف عليه، قد تقدم معناهما: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قال مقاتل: إن النبي (ص) قال: «لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا»؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ برفع تسأل، وهي قراءة الجمهور، ويكون في موضع الحال بعطفه

على ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ والمعنى إذا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير مسؤول. وقال سعيد الأخفش: ولا تسأل (بفتح التاء وضم اللام) ويكون في وضع الحال عطفاً على ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ والمعنى: إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً غير سائل عنهم؛ لأن علم الله بكفرهم بعد إنذارهم يغني عن سؤاله عنهم هذا معنى غير سائل. ومعنى غير مسؤول لا يكون مؤاخذاً بكفر من كفر بعد التبشير والإنذار. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب: إن رسول الله (ص) قال ذات يوم: «ليت شعري ما فعل أبواي». فنزلة هذه الآية، وهذا على قراءة من قرأ: (ولا تسأل) جزماً على النهي، وهي قراءة نافع وحده، وفيه وجهان:

أحدهما: أنه نهى عن السؤال عمن عصى وكفر من الأحياء، لأنه قد يتغير حاله فينتقل عن الكفر إلى الإيمان وعن المعصية إلى الطاعة.

والثاني: وهو الأظهر، أنه نهى عن السؤال عمن مات على كفره ومعصيته، تعظيماً لحاله وتغليظاً لشأنه، وهذا كما يقال: لا تسأل عن فلان! أي قد بلغ فوق ما تحسب. وقرأ ابن مسعود (ولن تسأل) وقرأ أبيّ (وما تسأل)؛ ومعناهما موافق لقراءة الجمهور، نفى أن يكون مسؤولاً عنهم. وقيل: إما سأل أيّ أبويه أحدث موتاً، فنزلت. وقد ذكرنا في كتاب (التذكرة) أن الله تعالى أحيا له أباه وأمه وآمنا به، وذكرنا قوله عليه السلام للرجل: «إن أبي وأباك في النار» وبيّنا ذلك، والحمد لله.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ المعنى: ليس غرضهم يا محمد بما يقترحون من الآيات أن يؤمنوا، بل لو أتيتهم بكل ما يسألون لم يرضوا عنك، وإنما يرضيهم ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم. يقال: رضي يرضى رضاً ورُضاً ورِضواناً ورُضواناً ومرضاة؛ وهو من ذوات الواو، ويقال في التثنية: رَضوان، وحكي الكسائي: رَضيان. وحكي رضاء ممدود، وكأنه مصدر راضي يراضي مراضاة

ورضاء. و(تتبع) منصوب بأن ولكنها لا تظهر مع حتى، قال الخليل. وذلك أن حتى خافضة للاسم، كقوله: ﴿ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾القدر: ٥ بالقمر:٥ وما يعمل في الاسم لا يعمل في الفعل البتة، وما يخفض اسماً لا ينصب شيئاً.

وقال النحاس: (تتبع) منصوب بحتى، و(حتى) بدل من أن، والملة: اسم لما شرعه الله لعباده في كتبه وعلى ألسنة رسله فكانت الملة والشريعة سواء، فأما الدين فقد فرّق بينه وبين الملة والتشريع فإن الملة والشريعة ما دعا الله عباده إلى فعله، والدين ما فعله العباد عن أمره.

قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ ﴾ المعنى ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذي يضعه في قلب من يشاء هو الهدى الحقيقي، لا ما يدّعيه هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ الأهواء جمع هوى، كما تقول: جمل وأجمال، ولما كانت مختلفة جمعت؛ ولو حُمل على أفراد الملة لقال هواهم. وفي هذا الخطاب وجهان: أحدهما ـ أنه للرسول، لتوجه الخطاب إليه. والثاني ـ أنه للرسول والمراد به أمته، وعلى الأول يكون فيه تأديب لأمته، إذ منزلتهم دون منزلته. وسبب الآية أنهم كانوا يسألون المسالمة والهُدنة، ويعِدون النبي (ص) بالإسلام؛ فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتّبع ملتهم، وأمره بجهادهم.

فائدة جليلة: قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ سئل أحمد بن حنبل عمن يقول: القرآن مخلوق؛ فقال: كافر، فقيل: بم كفّرته؟ فقال: بآيات من كتب الله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ الرعد: ٣٧ والقرآن من علم الله. فمن زعم أنه مخلوق فقد كفر.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ

﴿ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ قال قتادة: هم أصحاب النبي (ص)، والكتاب على هذا التأويل القرآني. وقال ابن زيد: هم من أسلم من بني إسرائيل. والكتاب على هذا التأويل: التوراة، والآية تعم. و﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ رفع بالابتداء، ﴿ ءَاتَيْنَٰهُمُ ﴾ صلته، ﴿ يَتْلُونَهُۥ ﴾ خبر الابتداء، وإن شئت كان الخبر ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾.

اختلف في معنى ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ فقيل: يتبعونه حق اتباعه، باتباع الأمر والنهي، فيحللون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بما تضمنه.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هم الذين إذا مرّوا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها. وقد روى هذا المعنى عن النبي (ص): كان إذا مرّ بآية رحمة سأل، وإذا مرّ بآية عذاب تعوّذْ. وقال الحسن: هم الذين يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكِلون ما أشكل عليهم إلى عالمه. وقيل: يقرؤونه حق قراءته قلت: وهذا فيه بعد، إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه، ويفهمون معانيه، فإن بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفّق.

ـ الشيرازي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

بمناسبة ذكر حجج اليهود في الآيات السابقة، تتحدث الآية عن حجج مجموعة أُخرى من المعاندين ويبدو أنهم المشركون العرب فتقول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾.

هؤلاء الجاهلون ــ أو الذين لا يعلمون ــ بتعبير الآية، طرحوا طلبين بعيدين عن المنطق، طلبوا:

١ ـ أن يكلمهم الله: ﴿ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ ﴾.

٢ ـ أن تنزل عليهم آية: ﴿ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾.

والقرآن يجيب على هذه الطلبات التافهة قائلًا: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾.

لو أن هؤلاء يستهدفون حقاً إدراك الحقيقة، ففي هذه الآيات النازلة على رسول الله (ص) دلالة واضحة بينة على صدق أقواله، فما الداعي إلى نزول آية مستقلة على كل واحد من الأفراد؟! وما معنى الإصرار على أن يكلمهم الله مباشرة؟!

مثل هذا الطلب تذكره الآية ٥٢ من سورة المدثر: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ المدثر: ٥٢ .

مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق، لأن تحققه ـ إضافة إلى عدم ضرورته ـ مخالف لحكمة الباري سبحانه، لما يلي:

أوّلاً: إثبات صدق الأنبياء للناس كافة أمر ممكن عن طريق الآيات التي تنزل عليهم.

ثانياً: لايمكن للآيات والمعاجز أن تنزل على أي فرد من الأفراد، فذلك يتطلب نوعاً من اللياقة والإستعداد والطّهارة الرّوحية. فالأسلاك الكهربائية تتحمل من التيّار ما يتناسب مع ضخامتها. الأسلاك الرقيقة لا تتحمل التّيار العالي، ولايمكن أن تتساوى بالأسلاك الضخمة القادرة على توصيل التّيارات العالية . والمهندس يفرّق بين الأسلاك التي تستقبل التّيارات العالية من المولدات مباشرة، والأسلاك التي تنقل التيّار الواطيء داخل البيوت.

الآية التالية تخاطب النّبي (ص)، وتبين موقفه من الطلبات المذكورة وتقول: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

فمسؤولية الرّسول بيان الأحكام الإلهية، وتقديم المعاجز، وتوضيح الحقائق، وهذه الدعوة ينبغي أن تقترن بتبشير المهتدين وإنذار العاصين وهذه مسؤوليتك أيّها الرّسول، وأما الفئة التي لا تذعن للحق بعد كل هذه الآيات فانت غير مسؤول

عنها: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

أسباب النّزول:

روي عن ابن عباس بشأن نزول الآية الأُولى أنّ يهود المدينة ونصارى نجران، كانوا يأملون أن تكون قبلة المسلمين موافقة دائماً لقبلتهم، فلمّا تغيّرت قبلة المسلمين من بيت المقدس إلى الكعبة يئسوا من نبي الإسلام.

ولعل بعض المسلمين لم يرق له هذا التغيير، لرغبته أن لا يحدث عملاً يؤدي إلى إزعاج اليهود والنصارى.

الآية الأُولى نزلت لتعلن للنبي أن هذه الفئة من اليهود والنصارى لا ترضى عنك بالإشتراك في قبلتهم ولا بأي شيء آخر، إلاَّ أنّ تقبل كلَّ ما يتبعونه.

وقيل: إنَّ الآية نزلت إثر إصرار النّبي على إرضاء أهل الكتاب طمعاً في قبولهم الإسلام، فنزلت الآية لتؤكد أن رضى هؤلاء غاية لا تدرك إلاَّ بإعتناق دينهم.

وبشأن نزول الآية الثانية وردت روايات مختلفة، قيل إنها نزلت فيمن إلتحق بجعفر بن أبي طالب لدى عودته من الحبشة وهم أربعون نفراً، إثنان وثلاثون من أهل الحبشة وثمانية رهبان فيهم ((بحيرا)) الراهب المعروف. وقيل إنّها نزلت في يهود أسلموا وحسن إسلامهم من أمثال: عبد الله بن سلام وسعيد بن عمرو، وتمام بن يهودا.

الآية السابقة رفعت المسؤولية عن النّبي (ص) إزاء الضالين المعاندين. والآية أعلاه تواصل الموضوع السابق وتخاطب الرّسول بأن لا يحاول عبثاً في كسب رضا اليهود والنصارى لأنه: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾.

واجبك أن تقول لهم: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾، هدى الله هو الهدى البعيد عن الخرافات وعن الأفكار التافهة التي تفرزها عقول الجهّال، ويجب إتباع مثل هذا الهدى الخالص.

ثم تقول الآية: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

وبعد أن ذمّ القرآن الفئة المذكورة من اليهود والنصارى، أشاد بأُولئك الذين آمنوا من أهل الكتاب وانضموا تحت راية الرسالة الخاتمة ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ـ اي بالتفكر والتدبر ثم العمل به ـ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: يؤمنون بالرّسول الكريم (ص) ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

هؤلاء كانوا قد تلوا كتابهم السماوي حقّاً، وكان ذلك سبب هدايتهم، فهم قرأوا فيه بشارات ظهور النّبيّ الموعود، وقرأوا صفاته المنطبقة مع صفات نبيّ الإسلام (ص) فآمنوا به، والله مدحهم وأشاد بهم.

سؤال عن عصمة الأنبياء:

العبارة القرآنية: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ قد تثير سؤالاً بشأن عصمة الأنبياء، فهل يمكن للنبيّ (ص) ــ وهو معصوم ــ أن يتبع أهواء المنحرفين من اليهود والنصارى؟

في الجواب نقول: مثل هذه التعبيرات تكررت في القرآن الكريم، ولا تتعارض مع مقام عصمة الأنبياء، لأنها ــ من جهة ــ جملة شرطية، والجملة الشرطيّة لا تدل على تحقق الشرط.

ومن جهة أُخرى، عصمة الأنبياء لا تجعل الذنب على الأنبياء محالاً، بل المعصوم له قدرة على إرتكاب الذنب، ولم يسلب منه الإختيار، ومع ذلك لم يتلوث بالذنوب. بعبارة أُخرى: إنَّ المعصوم قادر على الذنب، ولكن إيمانه وعلمه وتقواه بدرجة لا تجعله يتجه معها إلى ذنب. من هنا فالتحذيرات المذكورة بشأنهم مناسبة تماماً.

من جهة ثالثة، هذا الخطاب وإنَّ اتجه إلى النّبي (ص) ولكن قد يكون موجهاً إلى النّاس جميعاً.

حق التلاوة:

عبر القرآن عن الفئة المهتدية من أهل الكتاب بأنهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلاً واضحاً تجاه القرآن الكريم والكتب السماوية، فالنّاس أمام الآيات الإلهية على أقسام:

قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والإدغام والغنّة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحتوى القرآن فما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ الجمعة: ٥.

وقسم يتجاوز إطار الألفاظ، ويتعمق في المعاني، ويدقّق في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعمل بما يفهم!

وقسم ثالث، وهو المؤمنون حقّاً، يقرأون القرآن باعتباره كتاب عمل، ومنهجاً كاملاً للحياة، ويعتبرون قراءة الألفاظ والتفكير في المعاني وإدراك مفاهيم الآيات الكريمة مقدمة للعمل، ولذلك تصحو في نفوسهم روح جديدة كلما قرأوا القرآن، وتتصاعد في داخلهم عزيمة وإرادة واستعداد جديد للأعمال الصالحة، وهذه هي التلاوة الحقة.

ورد عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق (ع) في تفسير هذه الآية: ((يُرَتِّلُونَ آيَاتِه، وَيَتَفَقَّهُونَ بِه، وَيَعْمَلُونَ بِأَحْكَامِه، وَيَرْجُونَ وَعْدَهُ، وَيَخَافُونَ وَعِيدَهُ، وَيَعْتَبِرُونَ بِقِصَصِه، ويَأْتَمِرُونَ بِأَوَامِرِه، وَيَنْتَهُونَ بِنَوَاهِيه، مَا هُوَ وَالله حفظُ آيَاتِه وَدَرسُ حُرُوفِه، وَتِلاَوَةُ سُوَرِه وَدَرسُ أَعْشَارِه وَأَخْمَاسِه، حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَأَضَاعُوا حُدُودَهُ، وإِنَّمَا هُوَ تَدَبُّرُ آيَاتِه وَالْعَمَلُ بِأَرْكَانِه، قَالَ الله تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ص: ٢٩)).

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾.

مرّة أُخرى يتجه الخطاب الإلهي إلى بني إسرائيل ليذكرهم بالنعم التي أُحيطوا بها، وخاصة نعمة تفضيلهم على أُمم زمانهم، فتقول الآية: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ أي: على كل من كان يعيش في ذلك الزمان.

كل نعمة تقترن بمسؤولية، وتقترن بإلتزام وتكليف إلهي جديد، ولذلك قال سبحانه في الآية التالية: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾... ﴿ وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ ﴾ أي غرامة أو فدية، ﴿ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ ﴾ إلاَّ بإذن الله، ولا يستطيع أحد غير الله أنّ يساعد أحداً ﴿ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾.

فكل سُبل النجاة التي تتوسلون بها في هذه الدنيا موصدة يوم القيامة، والطريق الوحيد المفتوح أمامكم هو طريق الإيمان والعمل الصالح، وطريق التوبة من الذنوب.

- الفخر الرازي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

اعلم أن هذا هو النوع الحادي عشر من قبائح اليهود والنصارى والمشركين، ففيه مسائل:

أن الله تعالى لما حكى عن اليهود والنصارى والمشركين ما يقدح في التوحيد وهو أنه تعالى اتخذ الولد، حكى الآن عنهم ما يقدح في النبوة، وقال أكثر المفسرين؛ هؤلاء هم مشركو العرب والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعٗا ﴾ الإسراء: ٩٠، وقالوا: ﴿ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ الأنبياء: ٥،

وقالوا ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾الفرقان: ٢١ هذا قول أكثر المفسرين، إلاّ أنه ثبت أن أهل الكتاب سألوا ذلك، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾النساء: ١٥٣، فإن قيل: الدليل على أن المراد مشركو العرب أنه تعالى وصفهم بأنهم لا يعلمون، وأهل الكتاب أهل العلم، قلنا: المراد أنهم لا يعلمون التوحيد والنبوة كما ينبغي، وأهل الكتاب كانوا كذلك.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾

اعلم أن القوم لما أصروا على العناد واللجاج الباطل واقترحوا المعجزات على سبيل التعنت بين الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) أنه لا مزيد على ما فعله في مصالح دينهم من إظهار الأدلة وكما بين ذلك بين أنه لا مزيد على ما فعله الرسول في باب الإبلاغ والتنبيه لكي لايكثر غمه بسبب إصرارهم على كفرهم وفي قوله: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ وجوه. أحدها: أنه متعلق بالإرسال، أي أرسلناك إرسالاً بالحق. وثانيها: أنه متعلق بالبشير والنذير أي أنت مبشر بالحق ومنذر به. وثالثها: أن يكون المراد من الحق الدين والقرآن، أي أرسلناك بالقرآن حال كونه بشيراً لمن أطاع الله بالثواب ونذيراً لمن كفر بالعقاب، والأولى أن يكون البشير والنذير صفة للرسول صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى قال: إنا أرسلناك يا محمد بالحق لتكون مبشراً لمن اتبعك واهتدى بدينك ومنذراً لمن كفر بك وضل عن دينك.

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما صبر رسوله بما تقدم من الآية وبين أن العلة قد انزاحت من قبله لا من قبلهم وأنه لا عذر لهم في الثبات على التكذيب به عقب ذلك بأن القوم بلغ حالهم في تشددهم في باطلهم وثباتهم على كفرهم أنهم يريدون مع ذلك أن

يتبع ملتهم ولا يرضون منه بالكتاب، بل يريدون منه الموافقة لهم فيما هم عليه فبين بذلك شدة عداوتهم للرسول وشرح ما يوجب اليأس من موافقتهم والملة هي الدين ثم قال: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ بمعنى أن هدى الله هو الذي يهدي إلى الإسلام وهو الهدي الحق والذي يصلح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو هوى، ألا ترى إلى قوله:﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم ﴾ أي أقوالهم التي هي أهواء وبدع، ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ أي من الدين المعلوم صحته بالدلائل القاطعة. ﴿ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي معين يعصمك ويذب عنك، بل الله يعصمك من الناس إذا أقمت على الطاعة والاعتصام بحبله قالوا: الآية تدل على أمور منها أن الذي علم الله منه أنه لا يفعل الشيء يجوز منه أن يتوعده على فعله، فإن في هذه الصورة علم الله أنه لا يتبع أهواءهم ومع ذلك فقد توعده عليه ونظيره قوله: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾الزمر: ٦٥ وإنما حسن هذا الوعيد لاحتمال أن الصارف له عن ذلك الفعل هو هذا الوعيد أو هذا الوعيد أحد صوارفه. وثانيها: أن قوله: ﴿ بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ يدل على أنه لا يجوز الوعيد إلاّ بعد نصب الأدلة وإذا صح ذلك فبأن لا يجوز الوعيد إلاّ بعد القدرة أولى فبطل به قول من يجوز تكليف ما لا يطاق. وثالثها: فيها دلالة على أن اتباع الهوى لا يكون إلاّ باطلاً، فمن هذا الوجه يدل على بطلان التقليد. ورابعها: فيها دلالة على أنه لا شفيع لمستحق العقاب لأن غير الرسول إذا اتبع هواه لو كان يجد شفيعاً ونصيراً لكان الرسول أحق بذلك وهذا ضعيف، لأن اتباع أهوائهم كفر، وعندنا لا شفاعة في الكفر.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المسألة الأولى: ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ موضعه رفع بالابتداء. و﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ ابتداء ثان و﴿ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ خبره.

المسألة الثانية: المراد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ من هم فيه قولان:

القول الأول: أنهم المؤمنون الذين آتاهم الله القرآن واحتجوا عليه من وجوه. أحدها: أن قوله: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ حث وترغيب في تلاوة هذا الكتاب، ومدح على تلك التلاوة، والكتاب الذي هذا شأنه هو القرآن لا التوراة والإنجيل، فإن قراءتهما غير جائزة. وثانيها: أن قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ يدل على أن الإيمان مقصود عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك. وثالثها: قوله: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ والكتاب الذي يليق به هذا الوصف هو القرآن.

القول الثاني: أن المراد بالذين آتاهم الكتاب، هم الذين آمنوا بالرسول من اليهود، والدليل عليه أن الذين تقدم ذكرهم هم أهل الكتاب فلما ذم طريقتهم وحكى عنهم سوء أفعالهم، أتبع ذلك بمدح من ترك طريقتهم، بل تأمل التوراة وترك تحريفها وعرف منها صحة نبوة محمد عليه السلام.

أما قوله تعالى: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ فالتلاوة لها معنيان. أحدهما: القراءة. الثاني: الإتباع فعلاً، لأن من اتبع غيره يقال تلاه فعلاً، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾الشمس: ٢ فالظاهر أنه يقع عليهما جميعاً، ويصح فيهما جميعاً المبالغة لأن التابع لغيره قد يستوفي حق الاتباع فلا يخل بشيء منه، وكذلك التالي يستوفي حق قراءته فلا يخل بما يلزم فيه، والذين تأولوه على القراءة هم الذين اختلفوا على وجوه. فأولها: أنهم تدبروه فعملوا بموجبه حتى تمسكوا بأحكامه من حلال وحرام وغيرهما.وثانيها: أنهم خضعوا عند تلاوته، وخشعوا إذا قرأوا القرآن في صلاتهم وخلواتهم. وثالثها: أنهم عملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وتوقفوا فيما أشكل عليهم منه وفوضوه إلى الله سبحانه. ورابعها: يقرؤنه كما أنزل الله، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتأولونه على غير الحق. وخامسها: أن تحمل الآية على كل هذه الوجوه لأنها مشتركة في مفهوم واحد، وهو تعظيمها، والانقياد لها لفظاً ومعنى، فوجب حمل اللفظ على هذا القدر المشترك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى والله أعلم.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢ ﴾
﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

ـ الطباطبائي:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ هم المشركون غير أهل الكتاب ويدل عليه المقابلة السابقة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ ﴾ الآية، ففي تلك الآية ألحق أهل الكتاب في قولهم بالمشركين والكفار من العرب، وفي هذه الآية ألحق المشركين والكفار بهم، فقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم ﴾ ـ وهم أهل الكتاب واليهود من بينهم ـ حيث اقترحوا بمثل هذه الأقاويل على نبي الله موسى (عليه السلام)، فهم والكفار متشابهون في أفكارهم وآرائهم، يقول هؤلاء ما قاله أولئك وبالعكس تشابهت قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ جواب عن قول الذين لا يعلمون إلخ، والمراد أن الآيات التي يطالبون بها مأتية مبينة، ولكن لا ينتفع بها إلاّ قوم يوقنون بآيات الله، وأما هؤلاء الذين لا يعلمون، فقلوبهم محجوبة بحجاب الجهل، مؤفة بآفات العصبية والعناد، وما تغني الآيات عن قوم لا يعلمون. ومن هنا يظهر وجه توصيفهم بعدم العلم، ثم أيد ذلك بتوجيه الخطاب إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والإشعار بأنه مرسل من عند الله بالحق بشيراً ونذيراً،

فلتطب به نفسه، وليعلم أن هؤلاء أصحاب الجحيم، مكتوب عليهم ذلك، لا مطمع في هدايتهم ونجاتهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾، يجري مجرى قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾البقرة: ٦ .

***

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾، رجوع إلى الطائفتين بعد الإلتفات إلى غيرهم، وهو بمنزلة جمع أطراف الكلام على تفرقها وتشتتها، فكأنه بعد هذه الخطابات والتوبيخات هم يرجع إلى رسوله ويقول له: هؤلاء ليسوا براضين عنك، حتى تتبع ملتهم التي ابتدعوها بأهوائهم ونظموها بآرائهم، ثم أمره بالرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أي أن الإتباع إنما هو لغرض الهدى ولا هدى إلاّ هدى الله والحق الذي يجب أن يتبع وغيره ـ وهو ملتكم ـ ليس بالهدى، فهي أهوائكم ألبستموها لباس الدين وسميتموها بإسم الملة، ففي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ إلخ، جعل الهدى كناية عن القرآن النازل، ثم اضيف إلى الله فأفاد صحة الحصر في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ على طريق قصر القلب، وأفاد ذلك خلو ملتهم عن الهدى، وأفاد ذلك كونها أهوائا لهم، واستلزم ذلك كون ما عند النبي علماً، وكون ما عندهم جهلاً، واتسع المكان لتعقيب الكلام بقوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا

نَصِيرٍ ﴾، فانظر إلى ما في هذا الكلام من أصول البرهان العريقة، ووجوه البلاغة على إيجازه، وسلاسة البيان وصفائه.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ يمكن أن تكون الجملة بقرينة الحصر المفهوم من قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ جواباً للسؤال المقدر الذي يسوق الذهن إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ ﴾ إلخ، وهو أنهم إذا لم يكن مطمع في إيمانهم، فمن ذا الذي يؤمن منهم؟ وهل توجيه الدعوة إليهم باطل لغو؟ فأجيب بأن الذين آتيناهم الكتاب والحال أنهم يتلونه حق تلاوته، أؤلئك يؤمنون بكتابهم فيؤمنون بك، أو ان أؤلئك يؤمنون بالكتاب، كتاب الله المنزل أيا ما كان، أو ان أؤلئك يؤمنون بالكتاب الذي هو القرآن، علي هذا: فالقصر في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ قصر أفراد والضمير في قوله: به على بعض التقادير لا يخلو عن استخدام، والمراد بالذين اوتوا الكتاب قوم من اليهود والنصارى ليسوا متبعين للهوى من أهل الحق منهم، وبالكتاب التوراة والإنجيل، وإن كان المراد بهم المؤمنين برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبالكتاب القرآن، فالمعنى: أن الذين آتيناهم القرآن، وهم يتلونه حق تلاوته أؤلئك يؤمنون بالقرآن، لا هؤلاء المتبعون لأهوائهم، فالقصر حينئذ قصر قلب.

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ ﴾، إلى آخر الآيتين إرجاع ختم الكلام إلى بدئه، وآخره إلى أوله، وعنده يختتم شطر من خطابات بني إسرائيل.

في إرشاد الديلمي عن الصادق (عليه السلام): في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾، قال: يرتلون آياته ويتفقهون به ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه وأضاعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ص: ٢٩.

وفي تفسير العيّاشي عن الصادق (عليه السلام): في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ يَتۡلُونَهُۥ

﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ قال (عليه السلام): الوقوف عند الجنة والنار.

اقول: والمراد به التدبّر.

وفي الكافي عنه (عليه السلام): في الآية قال (عليه السلام) هم الأئمة.

أقول: وهو من باب الجرى والانطباق على المصداق الكامل.

التعليق على ما مرّ من التفسير نقول:

يبدو جلياً إجماع المفسرين حول المعنى لهذه الآيات، ومع أن العبارات جاءت تقريباً موحدة، كما أن بعض المفسرين نقل عن غيره بعض العبارات التفسيرية، كإبن كثير بنقله عن القرطبي، والشيخ مغنية عن الطبرسي وهكذا عند الجميع، وهذا يدل بشكل واضح على عدم وجود اختلاف حول المعنى ولله الحمد.